صدى مقتل الحسين

في التاريخ الإسلامي والأدب العربي

الأستاذ ضياء الدخيلي

في محرم الحرام تنشى الكآبة والحزن الأقطار التي يتغلب فيها التشيع لآل البيت عليهم السلام كما في العراق وإيران والهند وأقسام في الأفغان والتبت في الصين وجبل عامل في لبنان ومحلة الأمن في دمشق ومحلات المتاولة (أي المتولين لأهل البيت) في بيروت، وبعض عشائر الحجاز حوالي المدينة وفي البحرين الكويت وتركستان والقفقاز في روسيا ومحلات أخرى أجهلها. في الأصقاع الشيعية تجد المساجد والجوامع تجلل في محرم من كل عام بالسواد القاتم حزناً على شهيد كربلاء وتخرج المواكب باكية معولة تندب ابن بنت رسول الله (ص) الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) الذي قتله جند عبيد الله بن زياد بأمر من يزيد بن معاوية وذلك عام ٦١ هـ (٦٨٠ م) — قتله هو وصحبه الكرام وأهل بيته حتى طفله الرضيع ومثلوا بأجسادهم الطاهرة وأحرقوا خيامهم وسبوا نساءهم وذلك في كربلاء على مسافة من الكوفة عاصمة أبيه الإمام (ع) وقد بالغوا في القسوة وفظاعة التمثيل وحرموه هو وأطفاله الماء حتى ماتوا عطشان؛ كل ذلك لأخافة شيعة أبيه في العراق وقصد إخماد كل ثورة يحتمل أن يقوم بها الشيعة في العراق للانفصال من الحكم الأموي؛ ولكنهم اقترفوا من الفظائع ما أثار حفيظة العالم الإسلامي وأغضب كل من وقف على الواقعة من الناس حتى المستشرقين، فاقرأ ما كتبه المستشرق الفرنسي سيديو في كتابه (تاريخ العرب العام) والمستشرق الإنجليزي ميور في كتابه (الخلافة نزوعها وانحدارها وسقوطها) — إنك لتجد أقلام هؤلاء على نصرانيتهم — تسيل سخطاً على الجيش الأموي وما قام به في كربلاء من ظلم وعدوان.

لذلك صار اسم محرم رمز الحزن والكآبة في العالم الإسلامي وكان شهر النوح والبكاء عند الشيعة على الأخص فقد حدث المؤرخون أن الشيعة في العهد الأموي كانوا يعقدون المواكب والاحتفالات الصاخبة، وقد اتخذوا يوم كربلاء يوم حزن ورثاء، وكانوا يولونه كثيراً من عنايتهم فيجتمعون في الأسواق ويسيرون المواكب ويلزمون أنفسهم الإمتناع عن تناول أطايب الطعوم ولذيذ المشروب ويتناشدون الأشعار بالنوح على الحسين (ع) والطعن في قاتليه؛ وظل الحال على ذلك في العراق إلى أن تولى الحجاج بن يوسف الثقفي العراقين في عهد عبد الملك بن مروان فقابل الشيعة بالضد وحمل الناس على اتخاذ هذا اليوم عيداً وألزمهم لباس الثياب الفاخرة وتناول الأطعمة الشهية واتخاذ صنوف الحلوى والأفتان فيها ومنها الحبوب المطبوخة باللبن والسكر وكان من نتيجة ذلك أن وقعت مصادمات دامية بين الشيعة والسنة وحدثت مجازر مؤلمة بين المسلمين وقانا الله شرها.

حتى إذا قامت الدولة البويهية في العراق جعلت الاحتفال بذكرى مصرع الحسين أمراً رسمياً تلتزم القيام به الدولة المستولية على أزمة الحكم. قال السيوطي في (تاريخ الخلفاء)، وفي سنة ٣٥٢ هـ يوم عاشوراء ألزم معز الدولة (البويهي) الناس بغلق الأسواق ومنع الطباخين من الطبيخ ونسبوا القباب في الأسواق وعلقوا عليها المسوح (والمسوح جمع المسح وهو الكساء من شعر، وما يلبس من نسيج الشعر على البدن تقشفاً وقهراً للجسد) قال السيوطي وأخرجوا نساء منشرات الشعور يلطمن في الشوارع ويقمن المآتم على الحسين؛ وهذا أول يوم نيح عليه ببغداد. واستمرت هذه البدعة سنين: وفي ١٨ ذي الحجة منها عمل عيد غدير خم وضربت الدبادب (والدبادب جمع الدبداب وهو الطبل سمي بذلك حكاية لصوته).

وقال ابن الأثير في أخبار سنة ٣٥٢ هـ وفي هذه السنة عاشر محرم أمر معز الدولة الناس أن يغلقوا دكاكينهم ويبطلوا الأسواق والبيع والشراء وأن يظهروا النياحة ويلبسوا قباباً عملوها

بالسوح ، وأن يخرج النساء منشرات الشعور مسودات الوجوه قد شققن ثيابهن يدرن فى البلد بالنوائح ويلطمن وجوههن على الحسين بن على (ع) ففعل الناس ذلك. ولم يكن للسنية قدرة على المنع منه لكثرة الشيعة ولأن السلطان معهم . وفى ١٨ ذى الحجة أمر معز الدولة بإظهار الزينة فى البلد وأشعلت النيران بمجلس الشرطة وأظهر الفرح وفتحت الأسواق بالليل كما يفعل ليالى الأعياد ، فعل ذلك فرحاً بعيد غدير (وضربت الدبادب والبوقات وكان يوماً مشهوداً) وقال أبو المحاسن فى (النجوم الزاهرة) فى حوادث سنة ٣٦٣ وفيها أعاد عز الدولة بختيار النوح فى يوم عاشوراء إلى ما كان عليه .

وقال ابن الجوزى فى المنتظم فى أخبار سنة ٣٥٢ فمن الحوادث فيها أنه فى اليوم العاشر من المحرم غلقت الأسواق ببغداد وعطل البيع ولم يذبح القصابون ولا طبخ الطباخون ولا ترك الناس أن يستقوا الماء ونصبت القباب فى الأسواق وأقيمت النائحة على الحسين (ع)] .

والظاهر أن ما سنه معز الدولة البويهى استمر فى بغداد والعراق وتمسك به شيعة بغداد والتزموا القيام به فى كل عام ؛ حتى اليوم تجد تلك المواكب الحزينة الباكية تقام فى العراق ومنه أخذها العالم الإسلامى الشيعى . وقد جر إصرار الشيعة على إقامة تلك التقاليد المذهبية أن حدثت عدة اصطدامات بينهم وبين إخوانهم الأعزاء من أبناء السنة ؛ فى الأيام الأخيرة عندما حاول ياسين باشا الهاشمى منعها قامت ثورات دامية فى العراق فى لواء الديوانية وفى لواء الناصرية .

أما فى العصر العباسى الأخير فقد كانت الفتن المذهبية قائمة على قدم وساق بين الشيعة والسنة من أجل إصرار الشيعة على إحياء المواكب العزائية فى كل عام وقت محرم كما سنها معز الدولة البويهى ومن سبقه فى العصر الأموى قبل أن يجعل الحجاج يوم عاشوراء عيداً فكاية بشيعة العلويين .

قال ابن الأثير فى حوادث سنة ٤٤١ هـ وفيها منع أهل الكرخ من النوح (على الحسين) وفعل ما جرت عادتهم بفعله يوم عاشوراء فلم يقبلوا وفعلوا ذلك فجرى بينهم وبين السنية فتنة عظيمة قتل فيها وجرح كثير من الناس ولم ينفصل الشر بينهم حتى عبر الأتراك وضربوا خيامهم عندهم فكفوا حينئذ ، ثم شرع أهل الكرخ فى بناء سور على الكرخ ، فلما رآهم السنية من القلائين ومن يجرى مجراهم شرعوا فى بناء سور على سوق القلائين . وأخرج الطائفتان فى العمارة مالا جزيلا وجرت بينهما فتن كثيرة وبطلت الأسواق وزاد الشر حتى انتقل كثير من الجانب الغربى إلى الجانب الشرقى فأقاموا به . وتقدم الخليفة إلى أبى محمد بن النسوى بالعبور وإصلاح الحال وكف الشر فسمع أهل الجانب الغربى ذلك فاجتمع السنية والشيعة على المنع منه وأصلحوا أمرهم بأنفسهم ، وأذنوا فى القلائين وغيرها بحى على خير العمل (وهذا النداء ينفرد به الشيعة فى أذانهم) وأذنوا فى الكرخ : الصلاة خير من النوم (وهذا نداء ينفرد به أذان السنية وقت الفجر) وأظهروا الترحم على الصحابة فبطل عبور النسوى) هذا ما قاله ابن الأثير وفيه ترى التشاحن بين أهالى بغداد لم يكن منبعثاً بدوافع مذهبية فحسب ، بل أنه دخلت فى تكوينه أسباب أخرى جاهلية هو ما كان بين المحلات من تفاخر ، وهذا مظهر لانحطاط عقلية العامة من الناس فى تلك العهود وانتشار الجهل بين الطبقات الاجتماعية الدنيا الذى أدى إلى توسيع شقة الخلاف.

قال ابن الأثير ثم تجددت الفتنة سنة ٤٤٣ هـ فى صفر وعظمت أضعاف ما كانت قديماً فكان الاتفاق المتقدم غير مأمون الانتقاض لما فى الصدور من الأحن . ووصف ابن الأثير فى الجزء الثامن ص ٢٠٩ قيام بعض رجال الدولة العباسية من أهل السنة بالانتقام من شيعة الكرخ بإحراق أسواقهم ودورهم بوضع النار فى عدة مواضع منها مما أدى إلى احتراق سبعة عشر ألف إنسان وخسارة عظمى فى الأموال وهذا من أفظع صور المعارك الطائفية فى العصر العباسى الأخير مما مهد إلى انقراض الدولة الإسلامية وذهاب ريحها .

قال ابن الأثير وفى سنة ٥٠٢ هـ وقع الصلح ببغداد بين السنية والشيعة بعد فتن تكررت بينهم سنين عديدة ، ولم يستطع خليفة ولا سلطان أن يصلح بينهم ، (بل الصحيح أن الملوك لم يكونوا يريدون الإصلاح ، بل كانوا يزيدون النار حطباً

على أساس القاعدة : فرق تسد) فنرى مما تقدم ما تركه مصرع سيدنا الحسين (ع) من أثر سيء ظل يدوي صداه في الأعصار الإسلامية ؛ وقد سبب مجازر طائفية دامية أضاعت شوكة الإسلام وشغلت المسلمين بأنفسهم وألقت بأسهم فيما بينهم وأعداؤهم يتربصون بهم الدوائر ، ويتحينون الفرص للانقضاض عليهم وتدمير معالم حضارتهم وإلقاء نير العبودية في رقابهم وقد سنحت لهم الفرصة في عهد المستعصم الذي قام جيشه بأفظع مجزرة طائفية في الكرخ إذ قتل ونهب وسبي العلويات بقيادة (أمير الجيوش) وأبي بكر ابن المستعصم كما وصف الحادثة ابن الفوطي من أبناء ذلك العصر في كتابه (الحوادث الجامعة والعبر النافعة في المائة السابعة) .

وأما في مصر فقد قال المقريزي في (خططه) ج ٢ ص ٣٨٥ عن عاشوراء كان الفاطميون يتخذونه يوم حزن تتعطل فيه الأسواق ويعمل فيه السماط العظيم المسمى سماط الحزن وقد ذكر عند ذكر المشهد الحسيني فانظره ، وكان يصل إلى الناس منه شيء كثير . فلما زالت الدولة اتخذ الملوك من بني أيوب يوم عاشوراء يوم سرور يوسعون فيه على عيالهم ويتبسطون في المطاعم ويصنع الحلاوات ويتخذون الأواني الجديدة ويكتحلون ويدخلون الحمام جرياً على عادة أهل الشام التي سنها لهم الحجاج في أيام عبد الملك بن مروان ليرغموا بذلك آناف شيعة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه الذين يتخذون يوم عاشوراء يوم عزاء وحزن فيه على الحسين بن علي لأنه قتل فيه وقد أدركنا بقايا مما عمله بنو أيوب من اتخاذ يوم عاشوراء يوم سرور وتبسط وكلا الفعلين غير جيد والصواب ترك ذلك والاقتداء بفعل السلف فقط .

وكان الفاطميون ينحرون يوم عاشوراء عند القبر (أي قبر رأس الحسين (ع) الذي نقله الأفضل بن أمير الجيوش من عسقلان في فلسطين إلى مصر) — الإبل والبقر والغنم ويكثرون النوح والبكاء ويسبون من قتل الحسين (ع) ولم يزالوا على ذلك حتى زالت دولتهم .

قال ابن زولاق في كتاب (سيرة المعز لدين الله) : في يوم عاشوراء من سنة ٣٥٣ هـ انصرف خلق من الشيعة وأشياعهم إلى المشهدين قبر كلثوم ونفيسة (يقول المقريزي إن السيدة كلثوم هي بنت القاسم بن محمد بن جعفر الصادق (ع) والسيدة نفيسة هي بنت الحسن بن زين العابدين بن الإمام الحسن بن علي أبي طالب (ع) وقد توفيتا بمصر ودفنتا هناك) ومعهم جماعة من فرسان المغاربة ورجالتهم بالنياحة والبكاء على الحسين (ع) وكسروا أواني السقائين في الأسواق وشققوا الروايا وسبوا من ينفق في هذا اليوم ونزلوا حتى بلغوا مسجد الريح وثارت عليهم جماعة من رعية أسفل فخرج أبو محمد الحسين بن عمار وكان يسكن هناك في دار محمد بن أبي بكر وأغلق الدرب ومنع الفريقين ورجع الجميع فحسن موقع ذلك عند المعز ولولا ذلك لعظمت الفتنة لأن الناس قد أغلقوا الدكاكين وأبواب الدور وعطلوا الأسواق وإنما قويت أنفس الشيعة بكون المعز (الفاطمي) بمصر . وقد كانت مصر لا تخلو منهم في أيام الأخشيدية والكافورية وكانوا يجتمعون في يوم عاشوراء عند قبر كلثوم وقبر نفيسة . وكان السودان وكافور يتعصبون على الشيعة وتتعلق السودان في الطرقات بالناس ويقولون للرجل من خالك ؟ فإن قال معاوية أكرموه ، وإن سكت لقي المكروه وأخذت ثيابه وما معه حتى كان كافور قد وكل بالصحراء ومنع الناس من الخروج .

وقال المسبحي (قال لي الدكتور مصطفى جواد هو عز الدين المسبحي له كتاب مفقود في تاريخ الدولة الفاطمية ومسبح هنا اسم مفعول من سبح بالتشديد) — وفي يوم عاشوراء من سنة ٣٩٦ هـ جرى الأمر فيه على ما يجري كل سنة من تعطيل الأسواق وخروج المنشدين إلى جامع القاهرة ونزولهم مجتمعين بالنوح والنشيد ، ثم جمع بعد هذا اليوم قاضي القضاة عبد العزيز ابن النعمان سائر المنشدين الذين يتكسبون بالنوح والنشيد وقال لهم لا تلزموا الناس أخذ شيء منهم إذا وقفتم على حوانيتهم ولا تؤذوهم ولا تتكسبوا بالنوح والنشيد ، ومن أراد ذلك فعليه بالصحراء . ثم اجتمع بعد ذلك طائفة منهم يوم الجمعة في الجامع العتيق بعد الصلاة وأنشدوا وخرجوا على الشارع بجمعهم وسبوا